

### نشأة الصفيين

تنتسب الأسرة الصفيية إلى الشيخ صفي الدين الأردبيلي (٦٥٠هـ - ٧٣٥هـ) ، والذي كان في بداية عهده من مريدي الشيخ ( تاج الدين الزاهد الكيلاني ) . وهذا كان واعظاً صوفياً شافعي المذهب في مدينة ( أردبيل )<sup>(١)</sup> ، ثم أسس فرقة صوفية تسمى ( الإخوان ) وقد كثرت هذه الفرقة في إقليم ( أذربيجان ) .

بعد وفاته أخذ مشيخة طريقته ( والتي سميت بالطريقة الصفيية ) ابنه صدر الدين موسى ( ٧٠٤هـ - ٧٩٤هـ ) .

ولما توفي صدر الدين تولى ابنه « خواجه علي » الذي كانت له عدة لقاءات مع تيمور لنك المغولي المتشيع ، وتولى مشيخة الطريقة مدة ( ٣٦ سنة ) ومات في فلسطين سنة ( ٨٣٠هـ ) وقبره معروف في يافا باسم قبر الشيخ « علي العجمي » . وكان للخواجه علي ميل بسيط للتشيع ولم يكن تعصباً أو غلوّاً ، ويرجع بعض الباحثين أن تشيعه كان تأثراً بتيمور لنك ، الذي منحه مدينة أردبيل وضواحيها لتكون وقفاً له ولأبنائه من بعده . كما أن خواجه علي توسّط لفك أسر القبائل التي أسرها تيمور لنك ، فكانت بعد ذلك هذه القبائل من أشد جنده وأتباعه .

ثم تولى مشيخة الطريقة من بعده ابنه إبراهيم الذي لقب بـ « شيخ شاه »

(١) هي مدينة تابعة لإقليم أذربيجان السابق ، وهي الآن في شمال غربي إيران قرب

أي « الشيخ الملك » ، لأن مظاهر الملك ظهرت عليه أكثر من مظاهر رئاسة الطريقة الصوفية . وتوفي سنة ( ٨٥١ هـ ) وكان تشيعه واضحاً على طريقة الشيعة الإثني عشرية ، وأدخل أتباعه بصراعات مع أهل السنة بمدينة داغستان ، وخلفه ابنه الأصغر جنيد والذي كثرت في عهده الاهتمام بالمظاهر الملكية ولكثرة أتباعه ونزعه للملك خاف منه ملوك تلك المناطق ، فضيقوا عليه حتى رحل إلى مدينة حلب ثم إلى مدينة ديار بكر ، وهناك حسنت علاقته بحسن أوزون .

و « جنيد » هذا كان شيعياً جليداً متعصباً محارباً لأهل السنة « إذ إن طريقته الصوفية هي مزيج من التصوف والتشيع » فهم صوفية وأئمتهم هم الأئمة الاثنا عشر عند الشيعة ، وقد أعلن جنيد أنه انفصل عن أهل السنة بالكلية وأصبح شيعياً ، ثم عاد لمحاربة ملوك التركمان ( آق قونيلو ، قره قونيلو ) والعثمانيين ، وعندما أحس بالخطر تحالف مع سلطان الآق قونيلو ( حسن أوزون ) ولكنه قُتل في إحدى حروبه في مدينة شيروان سنة ( ٨٦١ هـ ) وخلفه ابنه حيدر وتزوج من « مارتة » بنت حسن أوزون « الطويل »<sup>(١)</sup> ، وكانت أمها « كاترينا » ابنة « كارلو يوحنا » ملك مملكة طريزون<sup>(٢)</sup> اليونانية النصرانية .

و « حيدر » هو أول من لقب بلقب « سلطان » في العائلة الصوفية ،

(١) هو حسن الطويل مؤسس دولة « آق قونيلو » التي حكمت شمال غرب إيران .

(٢) هذه المدينة تقع الآن في تركيا على البحر الأسود وكانت مملكة يونانية آنذاك .

وأمر أتباعه الدراويش<sup>(١)</sup> بأن يضعوا على رؤوسهم قلنسوة مخروطية الشكل مصنوعة من قماش الجوخ الأحمر ، وتحتوي على اثني عشرة طية رمزاً للأئمة الاثني عشر عند الشيعة الإمامية ، وسموا بـ « قزلباش » ، وهي كلمة تركية تعني « الرأس الأحمر » وكان أتباعهم شديدي التعلق بهم والغلو في مشايخهم ، مع قلة عبادة بل كانت طريقتهم هي مجموعة أشعار ومدائح واعتقادات مغالية في تقديس مشايخ الطريقة . وقد كوّن حيدر جيشاً للانتقام لمقتل والده من ملك مدينة شروان ( التابعة الى إقليم داغستان حالياً ) ولكنه قُتل سنة ٨٩٣ هـ ، وكان لحيدر ثلاثة أولاد : ( علي ، وإبراهيم ، وإسماعيل ) وقد خاف منهم الأمير يعقوب أمير الدولة التركمانية « آق قونيلو » فسجنهم ، ثم أطلق سراحهم بعد وفاة الأمير يعقوب ، ولكن علي وإبراهيم قُتلا ، وذهب إسماعيل إلى مدينة « كيلان » على بحر قزوين جنوب أردبيل ، فرعاه السادة الصوفية ، ، وكان قد تربى منذ صغره على التشيع الشديد ،

(١) حالة الصفيين تمثل العلاقة بين التصوف والتشيع ، فقد تحولت الطريقة الصوفية السنية « الشافعية » عند صفى الدين الأردبيلي وابنه صدر الدين بالتدرج إلى تشيع خفيف ثم إلى تشيع غال . وقد كان التصوف - مع الأسف - أكثر من مرة مدخلاً للتشيع ، وقد كتب عن ذلك الكاتب الشيعي الدكتور كامل مصطفى الشبيبي في كتابه : « الفكر الشيعي والنزعات الصوفية » ، و « الصلة بين التصوف والتشيع » . وقد أشار إلى ذلك المستشرق براون ( Brown ) عندما قال : إن التشيع والتصوف كان من الأسلحة التي حارب بها الفرس العرب : انظر : ( A literary : Brown . History of Persiavol P 410 ) .

وحاول منذ صغره تجميع الصوفية القزلباشية حوله من أجل الانتقام من قتلته أبيه وجدته .

وتّم ذلك فعلاً وتوجّه إلى أمير دولة التركمان « آق قونيلو » سنة ٩٠٧ هـ ، وقتله ، وجلس على ملكه بعد أن بايعته كل قبائل التركمان « لأن القبائل كان لها اعتقاد بالطرق الصوفية ، ثم أعلن قيام الدولة الصفوية .

### الشاه إسماعيل أول ملك للدولة الصفوية

( ٩٠٢ هـ / ١٥٠١ م )

كما سبق ذكره ، قتل الشاه إسماعيل أمير دولة « الآق قونيلو » وأعلن قيام الدولة الصفوية وعاصمتها في مدينة « تبريز » (١) .

وأول ما قام به أعلن أنّ مذهب دولته الصفوية هو الإمامية الإثنى عشرية ، ثم شرع بنشر التشيع في جميع المنطقة المسماة اليوم ( إيران ) (٢) ، وعندما نُصِّح أن مذهب أهل إيران هو المذهب الشافعي وأن هذا الإعلان سيوجه بالرفض قال : « إنني لا أخاف من أحد .. فإن تنطلق الرعية بحرف واحد فسوف امتشق الحسام ولن أترك أحداً على قيد الحياة » (٣) .

(١) هذه المدينة ليومنا هذا بنفس الاسم وهي في إقليم أذربيجان في إيران .

(٢) هذا الاسم ( إيران ) بدأ يظهره وتبلوره بشكله الواضح منذ ظهور الدولة الصفوية .

(٣) « تلريخ إيران زمين » ( ص ٢٦٧ ) ، د . محمد جواد مشكور .

ثم سكَّ عملةً للبلاد كاتباً عليها : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، علي ولي الله » ، ثم كتب اسمه على العملة (١) .  
وأمر الخطباء في المساجد بسبِّ الخلفاء الراشدين الثلاثة ، مع المبالغة في تقديس الأئمة الاثني عشر .

وقد عانى أهل الشنَّة في إيران معاناة كبيرة وأُجبروا على اعتناق المذهب الإمامي بعد أن قتل الشاه إسماعيل مليون إنسان سُني في بضعة سنين (٢) ، وكان يمتحن الإيرانيين الشنَّة بطرق شتى ؛ كأن يطلب من الفرد السُّني سبَّ الخلفاء فإن فَعَلَ طلب منه مزيداً من السبِّ ، فإن وافق أُطلق وإلا قطعت عنقه فوراً ، وأعلن سبَّ الصحابة والخلفاء في الشوارع والأسواق وعلى المنابر ، منذراً كل المعاندين الشنَّة بقطع رقابهم (٣) .

ولرُبَّ سائل يسأل : كيف استطاع الشاه إسماعيل أن يسيطر على كل بلاد إيران ؟

والجواب : هو أن إيران والعراق كانتا - قبل حكم الصفويين -

(١) « الشاه عباس الكبير » (ص ١٠) د . يديع محمد جمعة .

(٢) « لمحات اجتماعية من تاريخ العراق » (١/٤٣-٥٠) ، د . علي الوردى كاتب شعبي .

(٣) « الفكر الشيوعي » كامل الشيبني (٤١٥) « « لمحات اجتماعية » علي الوردى . (٥٩/١) .

تحكم من قبل « الآق قونيلو » وقبل ذلك من « القره قونيلو » وكلاهما قبائل تركمانية ، وإسماعيل الصفي عاش هو وأجداده في كنف هذه الدول التركمانية ، لكن تصوف أتباعه وتقليدهم الأعمى له جرهم إلى التشيع ، فأصبحوا صوفية متشعبة وسموا بـ « القزلباشية » كما ذكرنا وأتباع إسماعيل عبارة عن مجموعة قوية من العشائر التركمانية « شاملو ، قاجار ، تكلو ، ذو قدر ، أفشار ، روملو ، » وهؤلاء شكّلوا فيما بعد ميليشيا مسلحة صوفية متشعبة ، وكوّنوا للشاه إسماعيل جيشاً فاتكاً ، فتك بأهل السُّنة الشافعية وبعضهم حنفية في كل أنحاء بلاد إيران ، وكان للصفيين تأثير روحي على أتباعهم ، وتذكر بعض المصادر الشيعة الفارسية : أنه بينما كان الشاه إسماعيل مع أتباعه الصوفية في الصيد في منطقة « تبريز » إذ مرّ بنهر فمبره لوحده ودخل كهفاً ثم خرج متقلداً بسيف وأخبر رفاقه : أنه شاهد في الكهف « المهدي » صاحب الزمان - عند الشيعة - وأنه قال له : « لقد حان وقت الخروج » ، وأمسك ظهره ورفع ثلاث مرات ووضع على الأرض ، وشدّ حزامه بيده ووضع خنجرأ في حزامه وقال له : « اذهب فقد رخصتك » (١) .

ثم بعد ذلك بقي الشاه إسماعيل متردداً وقلقاً في اتخاذ القرار حتى ادعى أنه رأى علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - في المنام وقال له :

(١) « تاريخ الشاه إسماعيل » (ص ٨٨) ، طبع مركز تحقيقات فارس - إيران ، وباكستان ، إسلام آباد ، « عالم آراء صفوي » (ص ٦٤) .

« ابني .. لا تدع القلق يشوش أفكارك .. أحضر « القزلباشية » مع أسلحتهم الكاملة إلى المسجد في « تبريز » وأمرهم أن يحاصروا الناس ... وإذا أبدى هؤلاء أية معارضة أثناء الخطبة باسم أهل البيت فإنّ الجنود ينهون الأمر »<sup>(١)</sup> .

وفعل الشاه إسماعيل ما طلب منه في الجمعة مع أتباعه القزلباشية وحاصر جامع تبريز وأعلن سيادة المذهب الإمامي الإثني عشري بقيادة الدولة الصفوية . وسبب هذه الدعوى هو التحرر من فكرة « التقية » و « انتظار خروج المهدي » والتي بقي علماء الشيعة يحملونها في عقيدتهم كأحد المبادئ الرئيسية في المذهب ، وتركوا الجهاد والصراع العسكري إلى ظهور المهدي . ثم لما أرادوا الخروج من هذه الفكرة اخترعوا مجموعة أخرى من الأفكار والخرافات كي يبرروا خروجهم من المذهب ( يفتقدوا قواعد فاسدة ثم ينقضونها بأفسد منها ) . ويحلل الكاتب « راجر سيوري » ذلك بأنّ الصفويين اعتمدوا على فكرة الحق الإلهي للملوك الإيرانيين قبل الإسلام منذ سبعة آلاف سنة ، وذلك بتوراثة هذا الحق إلى ملوكهم ، وعندما تزوج الحسين بن علي رضي الله عنهما بنت ملك الفرس « يزدجرد » بعد معركة القادسية وأولدها الإمام زين العابدين « علي » اجتمع عندهم حقان : حق أهل البيت في الخلافة ( حسب نظرية الإمامية ) ، وحق ملوك إيران

(١) راجر سيوري : « إيران في العصر الصفوي » ( ص ٦٤ ) .

( حسب نظرية الفرس )<sup>(١)</sup> ، بالإضافة إلى فكرة نيابة المهدي . كل ذلك من جانب التشيع الفارسي . لعلوي حسن عطر جي ( ١٨-١٩ ) أما الجانب الصوفي فقد زوّد الفكر الصفي بالمنامات والكشوفات ، فيذكر الصفيون أن أحد مشايخ الصوفية وهو الشيخ ( زاهد الكيلاني ) والذي تَرَبَّى على يده جدهم « صفي الدين الأرديلي » تنبأ على أثر رؤية لصفى الدين الأرديلي « أن أولاد هذا الزعيم سيملكون العالم ، وبتروقون يوماً بعد يوم إلى زمان القائم المهدي المنتظر »<sup>(٢)</sup> .

وللرؤى والكشوفات تأثير ساحر في عالم التصوف ، لذا فقد أثرت هذه النبوءة على ( القزلباشية ) وكانوا يتصورون أن مُلك الصفيين سيستمر حتى ظهور « المهدي » لذا اهتزت هذه النظرة بعد خسارتهم في موقعة « جالديران » بين الشاه إسماعيل والسلطان العثماني سليم سنة ( ٩٢٠هـ / ١٥١٢م ) ، وهزيمة الشاه إسماعيل ، فبدأ الصراع يدبّ بين ( القزلباشية ) ونشأ تقاتل بينهم بعد اهتزاز هذه العقيدة في عقولهم<sup>(٣)</sup> .

(١) المصدر السابق (ص ٢٦) .

(٢) المصدر السابق (ص ٢٩) ، بينما يذكر صاحب « عنوان المجد » إبراهيم بن صبغة الله الحيدري ( ت : ١٨٨٢م ) - وهو من نسل الصفيين الذين بقوا على سُنَنِهِمْ وهربوا من الصفيين الشيعة - تأويلاً آخر للرؤيا ، وإن معناها : استمرار خروج العلماء من هذه العائلة إلى قيام الساعة . ولكن لا هذا حصل ولا ذاك .

(٣) المصدر السابق (ص ٤٩) .

وهناك سبب آخر : وهو أنّ الطريقة الصفوية في إيران والطريقة البكتاشية في تركيا كانتا من الطرق الصفوية التي جمعت بين الغلو في تقديس الأشخاص والباطنية المغالية<sup>(١)</sup> .

والشاه إسماعيل كان يجمع بين التعصّب المذهبي والغلوّ والتكفير من جانب وبين الدموية من جانب آخر<sup>(٢)</sup> .

(١) « التقريب القرآني في ضوء الصراع الصفوي العثماني » لعلاء الدين المدرس « (٩) ط ، المعروف .

(٢) وهذا ما يحصل اليوم في العراق وبغداد على الخصوص ؛ حيث ظهرت الآن أفكار الشيعة المغالي في التكفير والتي زرعت بشكل مركز عند الشيعة في فترة التسمينات ( ١٩٩١-٢٠٠٣م ) إبان الحصار الأمريكي على العراق ، ثم ظهرت نتائجه بعد سقوط بغداد واحتلال الأمريكان ، فتشكلت الميليشيات الشيعة وعذبت أهل الشنّة بأساليب لم تعهد في تاريخ العراق ، ثم قتلهم وهجرتهم بحملة تطهير شرّمة ، ورحل الآلاف بل الملايين من أهل الشنّة ( داخل البلاد وخارجه ) . ويخطئ من يظن أن الشيعة المتطرفين فعلوا ذلك فجأة بعد الاحتلال ، بل هي أفكار حملها علماء الشيعة قديماً وزرعوها عند عوامهم ولكنها لم تجد لها مخرجا ، وحتى الشيعة الذين ظهروا بشكل معتدل للناس سابقا فعلوا اليوم ما يندى له الجبين ، والدليل على ما نقول أن تلاميذ العالم والمفكر الشيعي المعروف ( محمد باقر الصدر ) الذي أعدمه صدام حسين - وهو يعد معتدلاً - من أمثال إبراهيم الجعفري وجواد المالكي ، أعضاء حزب الدعوة ، الأكثر اعتدالاً في نظر بعض الشنّة ، في عهدهم حصلت هذه المجازر والتي لم يشهدها تاريخ المنطقة منذ مئات السنين .

ووالد الصدر « مقتدى » هو ( محمد صادق الصدر ) والذي يوسم بالاعتدال كذلك ، هؤلاء هم أتباعه ، ميليشيا جيش المهدي ، الكل يعرف الجرائم التي =

فقد نقل عنه قريبه إبراهيم صبغة الله الحيدري<sup>(١)</sup> في « عنوان المجد » (ص ١١٩) أنه أكثر القتل حتى قَتَلَ ملك (شروان) ، وأمر أن يوضع في قَدْرِ كبير ويطبخ ، وأمر بأكله ففعلوا (أي القزلباشية)<sup>(٢)</sup> ، وكان لا يتوجه لبلاد في داخل إيران إلا فعل أشياء يندى لها الجبين ؛ من قَتَلَ

= ارتكبها هذا الجيش ، وأي فِكْر تكفيري دموي حُكِّل هذا الجيل الشيعي . وقبل ذلك حرس الثورة الإيراني والذين تربوا على أفكار خميني ثم خامشي ماذا فعلوا بالعراق من دموية نادرة الحدوث لم يفعلها حتى اليهود في فلسطين دون مبالغة . وبعد كل هذا يخرج علينا من لا يعرف عن التشيع إلا رسمه ليقتي لنا بغير علم بالتقريب بين المذاهب ، وما ذلك إلا جهلهم بالتشيع وأفكاره وتاريخ نشأته ، ونخص بالذكر بعض علماء مصر (الأزهر) ومفكرها ودعاتها ( هذا على سبيل العموم وإلا ففي مصر من يفهم خطر التشيع بدقة ) .

- (١) لهذا العالم المتوفي سنة (١٨٨٢ هـ) جهوداً قيمة في كتابه هذا في توثيق تاريخ تشيع المشائير العراقية ، كما إن له كتاباً قيماً بعنوان : « النكت الشنيعة في بيان الخلاف بين الله تعالى والشيعية » بتحقيقي ، وهو تحت الطبع في مكتبة الإمام البخاري ، يَسْرُ الله طبعه .
- (٢) قتل مثل هذه الجرائم اليوم في العراق ؛ فحرق الشباب الشُّني أحياء أمام منازلهم (وأشنع حادثة ما فعلته ميليشيات بدر وجيش المهدي عندما شوو طفلاً صغيراً شُنِّيًا في فرن وأرسلوه إلى أمه وهذه الحادثة يعرفها أهل بغداد في منطقة الأمين الواقعة شرق بغداد الرصافة ) ، ( وفعل كذلك بشباب اسمه عمر في منطقة شارع فلسطين سووه وأعطوه إلى أهله على طبق ) وكذلك أحرقوا جوه دعاة أهل الشُّنة بالتيزاب (ماء النار أو الأسيد) وثقبوا أجسادهم بالثقب ، وقلعوا أعين الكثير ؛ بل إن حادثة ( أبو عمر المشهداني ) في منطقة الدورة معروفة عندما ألقوه في فرن الخبز وحرقوه . وقد نشرت القناة البريطانية الرابعة في برنامج ( ديسباتشيز ) فلماً عن بعض هذه القضايح البشعة ( نشرت في شهر كانون الثاني سنة ٢٠٠٧ م ) .

ونَهَب وتمثيل ، حتى قتل من أعظم علماء العجم « السُّنَّة » وحرق كتبهم وانهزم كثير من العلماء إلى بلاد أخرى ، منهم جد مؤلف « عنوان المجد » انهزم إلى بلاد الأكراد السُّنِّيَّة في شمال العراق . وقتل من أهالي مدينة تبريز فقط ٢٠ ألف سُني .

ثم أمر الشاه إسماعيل جنوده بالسجود له . وكان من دمويته أن ينش قبر العلماء والمشايخ « السُّنَّة » ويحرق عظامهم ، وكان إذا قتل أميراً من الأمراء السُّنَّة أباح زوجته وأمواله لشخص ما من أتباعه . وكان أتباعه يقدسون الشاه إسماعيل ويعتقدون أنه لا ينكسر ولا يقدر عليه أحد<sup>(١)</sup> .

هذا هو مؤسس الدولة الصفوية ( إسماعيل شاه ) التي تُعَدُّ الدولة المؤسسة لكل دول الشيعة الإثني عشرية فيما بعد .

توسع الشاه إسماعيل في أرجاء إيران بعد أن تتبع مُلك دولة ( آق قونيلو ) فذهب إلى جنوب تبريز إلى مدينة همدان وهزم ( مراد بيك ) أمير قبائل آق قونيلو ، الذي فر إلى مدينة شيراز<sup>(٢)</sup> واستولى عليها ، وقضى على دولة التركمان السُّنِّيَّة في إيران ، وذلك سنة ( ٩٠٩ هـ )<sup>(٣)</sup> ،

(١) « عنوان المجد » للحميدي ( ١١٩-١٢٠ ) .

(٢) مدينة موجودة مقابل دولة الكويت من جهة الخليج العربي في إقليم فارس .

(٣) « إيران دراسة عامة » د . محمد وصفي أبو مغلي ، ١٩٨٥ ، منشورات مركز دراسات الخليج العربي ، جامعة البصرة .

واستولى على فارس ، وكرمان ، وخوزستان ( عربستان ) ، ومازندران ، واستراباد<sup>(١)</sup> . بعد ذلك توجه الشاه إسماعيل إلى جهة الشرق إلى خراسان واستولى عليها سنة ( ٩١٦ هـ ) واستولى على مدينة مشهد . وفي نفس السنة توجه إلى مرو شمال شرق إيران وذبح أكثر من عشرة آلاف من سكانها من أهل الشنّة لأنهم رفضوا التشيع<sup>(٢)</sup> . ثم حاول أن يمتد إلى بلاد الأوزبك سنة ( ٩١٨ هـ ) وأرسل أحد قواده ولكنه انهزم وقُتِلَ قائده وضعفت جبهته في هذه المنطقة وهجم عليه الأوزبك وكادوا يسترجعون خراسان لكنها بقيت في قبضة الشاه إسماعيل .

### دخول الشاه إسماعيل العراق واستيلاؤه على بغداد

من المعلوم للجميع أن بغداد عاصمة الدولة العباسية سقطت بيد المغول سنة ( ٦٥٦ هـ ) ، وبعدها حكم العراق المغول وسميت دولتهم

(١) فارس : هي المنطقة التي تقابل الخليج العربي من الجهة الثانية ، وأما كرمان : فهي بين باكستان وإقليم فارس المذكور . أما خوزستان : فهي عربستان وهي معروفة شمال الخليج العربي مقابل مدينة البصرة العراقية وأشهر مدنها مصفى عبدان والحمره ، أما مازندران : فهي شمال شرقي طهران جنوب شرق بحر قزوين ، وأما استراباد : فهي شمال طهران جنوب بحر قزوين غربي مازندران أي هو سيطر على غربي وجنوب وشمال إيران الحالية ، مبتدئاً دولته من إقليم أذربيجان شمال إيران .

(٢) « إيران دراسة عامة » د . محمد وصفي أبو مغلي ( ص ٢٤٧ ) .